IUGJEPS
Vol 28, No 4, 2020, pp 114 -142

ISSN 2410-5201

مجلة الجامعة للدراسات الإسلامية (عقيدة – تفسير – حديث)

تاريخ الإرسال (2020-04-06)، تاريخ قبول النشر (2020-05-05)

الآداب الإسلامية في سورة الحجرات وأثرها في المجتمع

اسم الباحث: د. عبدالرحمن عبدالله الجرمان [1] *

1 اسم الجامعة والبلد: أستاذ مشارك - قسم الدراسات الإسلامية - كلية التربية الأساسية - الكويت

* البريد الالكتروني للباحث المرسل:
E-mail address: a.aljarman@paaet.edu.kw

الملخص:

يُعنى هذا البحث بدراسة الآداب الإسلامية في سورة الحجرات، وأثرها في المجتمع.
وقد تم تقسيمه إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة ثم فهرس للمراجع والمصادر.
المقدمة: فيها أهمية البحث، والأسباب الباعثة على اختياره، وأهدافه وأسئلته، وحدوده وخطته ومنهجه، والتمهيد: فيه بيان معنى الآداب لغة واصطلاحًا، وحديث مختصر عن السورة: اسمها وعدد آياتها ومقصدها وأغراضها، والمبحث الأول: الآداب الواجبة مع الله تعالى ورسوله –صلى الله عليه وسلم-، والمبحث الثاني: الآداب الواجبة مع أفراد المجتمع، والمبحث الثالث: أثر تطبيق الآداب الإسلامية في المجتمع، ثم الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

كلمات مفتاحية: الآداب – الأخلاق – الحجرات – القرآن الكريم.

The Islamic Ethics in Surat Al-Hujurat and its Impact on the Society

Abstract:
This research is concerned with studying Islamic ethics in Surat Al-Hujurat, and its impact on the society. It was divided into an introduction, a preamble, three topics, and a conclusion, then a table of references.
The Introduction includes the importance of research, the reasons for choosing it, its goals and questions, limits, plan and methodology. The preamble includes definitions of the "Ethics" in language and terminology, and a brief discussion about the Surah: its name, number of verses, intention and purposes.
The topics of the research are as follows:
The first topic: The due ethics with God and His Messenger (PBH).
The second topic: The due ethics with members of society.
The third topic: The impact of the application of the Islamic ethics on the society.
Finally, the conclusion; it includes the most important results and recommendations.

Keywords: Ethics – Morals – Al-Hujurat – Holy Quran

IUG Journal of Islamic Studies (Islamic University of Gaza) / CC BY 4.0

المقدمة

{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا} [الكهف: 1-2].

والصلاة والسلام على نبينا القائل: (إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق)[1]، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن الله تعالى قد أنزل كتابه الكريم ليكون كتاب هداية وإرشاد، يأخذ بيد البشرية جمعاء لسلوك الطريق القويم، والصراط المستقيم، الموصل لرحمة الله ورضاه، ومن ثَّم الفوز بجنته جنة النعيم، يقول الله –جل في علاه-: {قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِين * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم} [المائدة:15- 16].

وهذا القرآن العظيم مشعل نور وهداية لأعدل وأقسط وأقوم منهج وطريق وملة من عقيدة وعبادة وأخلاق وسلوك وسياسة وشتى شؤون الدين والدنيا، فهو يهدي لأقوم شيء في كل شيء، يقول تعالى في بيان هذا المعنى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا}[الإسراء:9]، وقد أطلقَ وأبهمَ من يهديهم وفي أي شيء يهديهم؛ لتذهب النفس كل مذهب، فتشمل هذه الهداية كل ما تذهب إليه النفس، وتشمل أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمان أو مكان، وتشمل ما تهديهم إليه: كل منهج وكل طريق، وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان[2].

وهداية القرآن الكريم هي أساس دعوته، وأصل هدفه، وعنها تفرعت جميع شرائعه وآدابه، فبها نزل، وإليها قصد، وهي الحق الذي أنزله الله به، {وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الإسراء:105][3].

وسأحاول في هذا البحث المختصر إبراز شيء من هدايات القرآن الكريم في دعوته إلى التحلي بالأخلاق العالية والآداب الراقية، والتخلي عن سيئ الأخلاق وذميمها، وأثر ذلك في المجتمع، وذلك من خلال سورة الحجرات.

واخترت سورة الحجرات لعظم ما فيها من الأخلاق والآداب العظيمة، فهي تؤدب المجتمع المسلم تجاه الله ورسوله حول حقيقة الامتثال والمسارعة لتطبيق أوامر الله تعالى وأوامر رسوله –صلى الله عليه وسلم-، واحترام وتوقير رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فهو المبلّغ عن الله تعالى، وأيضاً تؤدب المجتمع المسلم بجملة آداب راقية تؤدي إلى الأخوة الحقيقية والألفة والمحبة والمودة

---

[1] أخرجه أحمد في المسند (٨٩٣٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري (207).

[2] انظر: الزمخشري، الكشاف ٣٥٣/٢، وابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز ٤٤٦/٥، وسيد قطب، في ظلال القرآن (2215/4).

[3] انظر محمد عرجون، القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين ص155.

وحسن الظن بين أفراده؛ مما يقوي وحدة وقوة وتماسك هذا المجتمع، ويساعده على الصمود في وجه التحديات التي تواجهه، وكذلك يساعد على انتشاره نتيجة للممارسات الأخلاقية الجميلة، فالنفوس جُبلت على حب الأخلاق وأهل الأخلاق ودين الأخلاق.

وهذا الموضوع من الأهمية بمكان، حيث إن العالم الإسلامي اليوم يواجه تحديات كبيرة يصعب عليه مواجهتها في ظل ضعف تماسك جبهته الداخلية نتيجة التفرق والاختلاف والتشرذم، وكل هذا بسبب ضعف تطبيق كثير من المجتمعات الإسلامية لتعاليم الإسلام، هذه التعاليم التي فاقت جميع التعاليم والقوانين الأخرى في العقيدة الصحيحة الصافية، والشريعة السمحة الميسّرة، والأخلاق والآداب الراقية.

ومن الأسباب الباعثة على اختيار هذا الموضوع:

1. أهمية هذا الموضوع كما سلف ذكره.
2. محاولة إبراز بعض معالم الهداية القرآنية في الجانب الأخلاقي والسلوكي.

أهداف البحث وأسئلته:

يهدف البحث إلى إبراز الآداب الواجبة للمسلم تجاه الله ورسوله وتجاه أفراد المجتمع، والمذكورة في سورة الحجرات، وبيان أثر تطبيق هذه الآداب في المجتمع المسلم.

فهو يسعى للإجابة على هذه الأسئلة:

1. ماهي الآداب الواجبة تجاه الله ورسوله الواردة في سورة الحجرات؟
2. ماهي الآداب الواجبة تجاه أفراد المجتمع الواردة في سورة الحجرات؟
3. ما أثر تطبيق هذه الآداب على المجتمع؟

حدود البحث:

حدود البحث هي الحديث عن الآداب الإسلامية في سورة الحجرات، وبيان أثرها على المجتمع.

الدراسات السابقة:

بعد البحث عن دراسات سابقة مفردة حول موضوع الآداب الإسلامية في سورة الحجرات وأثرها في واقع الأمة؛ وجدت دراسة للدكتور عبدالسلام اللوح بعنوان: التربية الأخلاقية في ضوء سورة الحجرات، وهو بحث مقدم لمؤتمر: (التربية في فلسطين ومتغيرات العصر)، المنعقد بكلية التربية في الجامعة الإسلامية بغزة 2004م.

وهي دراسة جيدة –بارك الله في مؤلفها–، وعند النظر فيها وجدت أنه ذكر في التمهيد مقدمات حول السورة، ثم قسم السورة كاملة إلى مقاطع، وذكر تحت كل مقطع: مناسبة كل مقطع لما قبله، وسبب نزول الآيات، والمعنى العام للآيات، وعلاقة المقطع بمحور السورة، وربط الآيات بالواقع.

فهذه الدراسة تختلف عن دراستي؛ حيث إني لم أقصد بدراستي تفسير وتناول السورة كاملة، وإنما فقط الآداب المذكورة فيها، وكذلك أردت بيان أثر هذه الآداب في المجتمع، وهذا ما خلت منه الدراسة سالفة الذكر.

خطة البحث:

تناولت موضوع هذا البحث من خلال الخطة الآتية:

مقدمة: وفيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره وحدود البحث وخطته.

تمهيد: فيه بيان معنى الآداب لغة واصطلاحاً، والحديث عن السورة اسمها وعدد آياتها ومقصدها وأغراضها.

المبحث الأول: الآداب الواجبة مع الله ورسوله.

المبحث الثاني: الآداب الواجبة مع أفراد المجتمع.

المبحث الثالث: أثر تطبيق الآداب الإسلامية في المجتمع.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

وأخيراً فهرس المصادر والمراجع

منهج البحث:

يأخذ البحث منحى التفسير الموضوعي، ومنهجي في تفسير الآيات المتعلقة بالآداب في سورة الحجرات هو المنهج التحليلي والاستنباطي.

وأسأل الله تعالى التوفيق والسداد، والهدى والرشاد.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد،،،

التمهيد

يحسن بي أن أُمهِّد للبحث بذكر معنى الآداب في اللغة والاصطلاح، وبعض المقدمات المتعلقة بسورة الحجرات.

فالآداب في اللغة:

جمع أدب، والأدب أصله الدعاء، فالآدِب هو الداعي، ومنه قيل لدعوة الناس إلى الطعام مَأْدَبَةٌ ومَأْدُبَةٌ، ومنه سمي الأخذ بمكارم الأخلاق أدباً؛ لأنه يَأْدِبُ الناس إلى المحامد وينهاهم عن القبائح(1).

قال ابن منظور: "الأَدَبُ: الذي يتأدَّب به الأديب من الناس؛ سمي أدباً لأنه يَأْدِبُ الناس إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح، وأصل الأدب الدعاء، ومنه قيل للصَّنِيع يدعى إليه الناس: مَدْعاةٌ ومَأْدُبَةٌ"(2).

والأدب في الاصطلاح:

تنوعت عبارات العلماء في تعريف الأدب في الإصلاح، وكلها تصب في نفس المعنى(3):

فقال بعضهم: هو استعمال ما يحمدُ قولاً وفعلاً.

وعبّر عنه بعضهم بأنه: الأخذ بمكارم الأخلاق.

وقيل: رياضة النفس ومحاسن الأخلاق الظاهرة والباطنة.

وقيل: الوقوف مع المستحسنات.

وقيل: هو تعظيم من فوقك والرفق بمن دونك.

وأما ما يتعلق بسورة الحجرات:

فهي سورة مدنية بالإجماع، وعدد آياتها ثماني عشرة آية اتفاقاً(4).

ومقصود سورة الحجرات الأعظم هو تأديب المسلمين بآداب سامية وراقية أولاً تجاه الله تعالى وتجاه رسوله، ثم تجاه إخوانهم المسلمين.

---

(1) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة 74/1، وابن منظور، لسان العرب 200/1، والفيروزأبادي، القاموس المحيط ص58.

(2) لسان العرب 206/1.

(3) انظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري 400/10، والعيني، عمدة القاري 22/80-81، والمناوي، فيض القدير 224/1.

(4) انظر: البغوي، معالم التنزيل ٤/١٩٧، والمحرر الوجيز ٨/٥، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٩/٣٥٢، وابن عاشور، التحرير والتنوير ٢٦/٢١٣

فإذا تأدب المسلم مع الله تعالى بالامتثال المطلق والتسليم لأوامره وعدم التقدم بين يديه؛ سهل عليه التأدب مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وامتثال أوامره واجتناب نواهيه وتوقيره واحترامه طاعةً لله تعالى وامتثالاً لأوامره، وسهل عليه التأدب مع إخوانه في المجتمع المسلم طاعةً وامتثالاً لله تعالى ورسوله –صلى الله عليه وسلم–.

وأما أهم أغراض هذه السورة العظيمة فهي[1]:

1. تعليم المؤمنين ما يجب عليهم من الأدب مع الله ورسوله في التعامل مع نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.
2. تعليم المؤمنين الأدب مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وتوقيره في معاملته وخطابه وندائه والحديث بين يديه.
3. تعليم المؤمنين الأدب الواجب مع بعضهم البعض، وحثّهم على التحلي بالأخلاق الفاضلة: (التثبت – الإصلاح – العدل – نصرة المظلوم – الأخوة – المساواة بين الناس)، ونهيهم وتحذيرهم من الأخلاق السيئة: (السخرية – اللمز – التنابز بالألقاب – سوء الظن – التجسس – الغيبة).
4. بيان منّة الله على المؤمنين بأن حبّب إليهم الإيمان وكرّه إليهم الفسوق والعصيان.
5. حث المؤمنين على تحقيق تقوى الله تعالى والإيمان الحقيقي به، وبيان أن تقوى الله هي المعيار الحقيقي للمفاضلة بين الخلق.

[1] انظر: التحرير والتنوير ٢١٣/٢٦، وفي ظلال القرآن ٣٣٣٥/٦.

المبحث الأول

الآداب الواجبة مع الله تعالى ورسوله ﷺ

في مطلع هذه السورة الكريمة يؤدب الله سبحانه وتعالى المجتمع المسلم بجملة آداب واجبة تجاه الله تعالى وتجاه رسوله –صلى الله عليه وسلم– المبلغ عنه تعالى، وهذه الآداب تقتضي تعظيم الله تعالى، واحترام وتوقير رسوله –صلى الله عليه وسلم–، وإن احترام وتوقير الرسول –صلى الله عليه وسلم– من توقير الله تعالى وتعظيمه.

وهذه الآداب هي:

١ – عدم التقدم بين يدي الله ورسوله:

قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيم} [الحجرات:1].

يخاطب الله سبحانه وتعالى أهل الإيمان ويناديهم بأشرف نداء، وهو وصفهم بالإيمان، وينهاهم عن التقدم بين يديه تعالى وبين يدي رسوله بقول أو فعل، فلا قول بعد قول الله ورسوله، ولا حكم فوق حكم الله ورسوله، {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} [الأحزاب: 36]، ثم يأمرهم سبحانه وتعالى بتقواه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ويذكّرهم بأنه سميع لأقوالهم عليم بأفعالهم وسيجازيهم عليها.

وفي هذه الآية حذف المفعول للتعميم حتى يذهب ذهن السامع كل ما يقع في النفس مما يمكن تقديمه من قول أو فعل[(1)].

ويقرر الله تعالى هذا الأدب أيضاً في ختام السورة، فيؤكد أدب مطلق الطاعة لله تعالى ورسوله –صلى الله عليه وسلم– ويرغب فيه، فيقول تعالى: {وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الحجرات: 14].

ومن تقديم القول بين يدي الله ورسوله: القول بخلاف القرآن الكريم والسنة النبوية، قال عبدالله بن عباس –رضي الله عنهما– في تفسير هذه الآية: "أي لا تقولوا بخلاف الكتاب والسنة"[(2)].

وقال ابن القيم –رحمه الله–: "فالتقدم بين يدي سنته –صلى الله عليه وسلم– بعد وفاته، كالتقدم بين يديه في حياته، ولا فرق بينهما عند ذي عقل سليم"[(3)].

---

(1) انظر: الكشاف ٤/٢، والبيضاوي، أنوار التنزيل ٤٠٦/٢.

(2) أخرجه الطبري في تفسيره جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣٣٥/٢١.

(3) ابن القيم، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين 389/2.

وهذا الأدب الرباني الجليل يعني التسليم لأمر الله ورسوله، وهو أساس جميع الآداب والأخلاق والأوامر الواردة في هذه السورة وفي غيرها من السور القرآنية والأحاديث النبوية، بل هو أساس الشريعة المحمدية والدين الإسلامي العظيم؛ فإذا سلّم المؤمن لأوامر الله تعالى ورسوله -صلى الله عليه وسلم-: تأدب مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ووقّره توقيراً وتعظيماً لله تعالى، ثم تأدب مع إخوانه المسلمين وبني مجتمعه تطبيقاً وامتثالاً لأوامر الله تعالى ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، فأساس كل أدب عظيم وخلق كريم هو التأدب مع الله تعالى ورسوله -صلى الله عليه وسلم-.

٢ و ٣- عدم رفع الصوت فوق صوت النبي -صلى الله عليه وسلم- أو بحضرته، وعدم ندائه باسمه دون وصف النبوة أو الرسالة:

قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُون * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيم} [الحجرات: 2-3].

في هذه الآية الكريمة يأمر الله تبارك وتعالى أهل الإيمان بتوقير النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ فينهاهم عن رفع أصواتهم فوق صوته -صلى الله عليه وسلم- وكذا رفع أصواتهم بحضرته، وكذلك ينهاهم عن ندائه -صلى الله عليه وسلم- باسمه مجرداً كما ينادي بعضهم بعضاً، بل ينادي بوصف النبوة والرسالة بخطاب لين جميل تعظيماً لقدره ومراعاة للأدب معه، وهذا كقوله تعالى: {لاَ تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا}[النور:63]، وبيّن الله تعالى أن هذين الأمرين: رفع أصواتهم فوق صوت النبي -صلي الله عليه وسلم- أو بحضرته ونداءه باسمه كما ينادي بعضهم بعضاً قد يكونان سبباً في بطلان ثواب الأعمال دون أن يشعر الإنسان.

ثم بيّن تعالى أن الذين يوقرون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بخفض أصواتهم عنده هم أهل إيمان حقيقي أخلصهم الله لتقواه، ووعدهم بمغفرة ذنوبهم والأجر العظيم يوم القيامة فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيم} [الحجرات: 3].

قال الضحاك: "نهاهم أن ينادوه كما ينادي بعضهم بعضاً، وأمرهم أن يشرّفوه ويعظموه ويدعوه إذا دعوه باسم النبوة"[1].

والصحابة الكرام -رضي الله عنهم- ضربوا أروع الأمثلة بتطبيق هذه المعاني بإخلاص وطيب نفس، فعن ابن أبي مليكة قال: "كاد الخيران أن يهلكا -يعني أبا بكر وعمر رضي الله عنهما-؛ رفعا أصواتهما عند النبي -صلى الله عليه وسلم- حين قدم

[1] أخرجه الطبري في جامع البيان ٣٣٩/٢١.

عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس –أخي بني مجاشع–، وأشار الآخر برجل آخر، فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلا خلافي، فقال عمر: ما أردتُ خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك؛ فأنزل الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} الآية، قال ابن الزبير –رضي الله عنه–: فما كان عمر يُسمع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بعد هذه الآية حتى يستفهمه"[1].

وأما حال أبي بكر بعد نزول هذه الآية؛ فقد روى أبو هريرة –رضي الله عنه– أن أبا بكر الصديق –رضي الله عنه– قال: لما نزلت هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ}، قال أبو بكر للنبي –صلى الله عليه وسلم–: "والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله –عز وجل–"[2] يعني همساً.

وهذا ثابت بن قيس بن شماس –رضي الله عنه– خطيب الأنصار، كان رفيع الصوت، وقد روى أنس بن مالك –رضي الله عنه– أنه لما نزلت هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} الآية؛ قال ثابت –رضي الله عنه–: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، حبط عملي أنا من أهل النار، وجلس في أهله حزيناً، ففقده رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدك رسول الله –صلى الله عليه وسلم– مالَكَ؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي –صلى الله عليه وسلم– وأجهر له بالقول، حبط عملي، أنا من أهل النار، فأتوا النبي –صلى الله عليه وسلم– فأخبروه بما قال، فقال –صلى الله عليه وسلم–: (لا، بل هو من أهل الجنة)[3]. وفي رواية عند الطبري[4]: فقال له رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (أما ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟)، فقال ثابت –رضي الله عنه–: رضيت ببشرى الله ورسوله –صلى الله عليه وسلم–، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت النبي –صلى الله عليه وسلم–.

وقد قتل ثابت –رضي الله عنه– شهيداً في معركة اليمامة، قال أنس بن مالك –رضي الله عنه– بعد روايته لهذا الحديث: "فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس وقد تحنط ولبس كفنه، فقال: بئسما تُعوّدون أقرانكم، فقاتلهم حتى قُتِلَ"[5].

وتوقير حضرته –صلى الله عليه وسلم– ليس مختصاً بحياته، بل حتى بعد وفاته؛ فقد كره العلماء رفع الصوت عند قبره –صلى الله عليه وسلم–، فحرمته واحترامه وتوقيره حياً وميتاً وفي كل حال[1].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٨٤٥).

(2) أخرجه الحاكم في مستدركه (٣٧٢٠) وقال: "صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

(3) أخرجه البخاري (٣٦١٣)، ومسلم (١١٩)، وأحمد في المسند واللفظ له (١٢٣٩٩).

(4) جامع البيان ٣٣٩/٢١.

(5) أخرجه أحمد في المسند (١٢٣٩٩).

ومرّةً سمع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– رجلين في مسجد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قد ارتفعت أصواتهما، فقال لهما: "من أين أنتما؟ فقالا: من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما؛ ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله –صلى الله عليه وسلم–"[2].

قال ابن العربي: "حرمة النبي –صلى الله عليه وسلم– ميتاً كحرمته حياً، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه، ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به"[3].

وقد نبّه ابن القيم إلى ملحظ لطيف فقال: "ومن الأدب معه –صلى الله عليه وسلم– ألا ترفع الأصوات فوق صوته؛ فإنه سبب لحبوط الأعمال، فما الظن برفع الآراء ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به؟ أترى ذلك موجباً لقبول الأعمال، ورفع الصوت فوق صوته موجب لحبوطها؟!"[4].

٤ – عدم إزعاج النبي –صلى الله عليه وسلم– وقت راحته وندائه من وراء البيوت:

قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُون * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [الحجرات: 4-5].

ذم الله تعالى في هذه الآية الكريمة أجلاف الأعراب الذين ينادون النبي –صلى الله عليه وسلم– في وقت راحته من وراء الحجرات –وهي بيوت نسائه– وهي صفة تنافي الأدب والتوقير اللائق له –صلى الله عليه وسلم–، فهم أساؤوا الأدب بإزعاج النبي –صلى الله عليه وسلم– في وقت راحته أولاً، وفي طريقة ندائه من وراء الحجرات ثانياً، ونفى عنهم بسبب هذا التصرف عقل التأدب الواجب في معاملة النبي –صلى الله عليه وسلم–، ثم أرشدهم إلى أن الخير لهم في الدنيا والآخرة هو انتظار خروجه دون أذيته أو مناداته في وقت راحته فقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ}، وختم الآية بقوله: {وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} لبيان أن من شأنه التجاوز عن مثل ذلك رحمة بالناس لكونهم جاهلين[5].

---

[1] انظر: المحرر الوجيز ٧/٨، والجامع لأحكام القرآن ٣٦١/١٩

[2] أخرجه البخاري (٤٧٠).

[3] أحكام القرآن ١٧٠٢/٤.

[4] مدارج السالكين 398/2.

[5] انظر: التحرير والتنوير ٢٢٥/٢٦.

٥- التقوى:

دعت آيات عديدة في هذه السورة إلى تقوى الله تعالى، قال الله تعالى: {وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الحجرات: 1]، وقال تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} [الحجرات: 1]، وقال تعالى: {وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات: 10]، وقال تعالى: {وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ} [الحجرات: 12]، وبيّن الله تعالى: أن الكرامة عند الله هي لأهل التقوى فقال تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: 13].

وتقوى الله تعالى هو أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية وستراً بفعل أوامره واجتناب نواهيه، قال طلق بن حبيب –رحمه الله-: "التقوى: العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء رحمة الله، والتقوى ترك معاصي الله على نور من الله مخافة عذاب الله"[(1)].

وتقوى الله هي مفتاح سعادة العبد في الدنيا والآخرة، فهي تحقق معية الله للعبد إذا اتصف بها؛ قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل: 128]، وهي جالبة لرحمة الله للعبد؛ قال الله تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: 156]، وهي سبب للفرج والخروج من الأزمات والرزق من رب الأرض والسماوات؛ قال الله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} [الطلاق: 2-3]، وهي سبب لتكفير السيئات وتعظيم الأجور والحسنات؛ قال الله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا} [الطلاق: 5]، وهي سبب لتيسير الأمور؛ قال الله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا} [الطلاق: 4]، وهي سبب للنجاة من النار والفوز بجنات النعيم؛ قال الله تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} [الحجر: 45، الذاريات: 15]، وقال تعالى:{لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ} [آل عمران: 198]، وقال تعالى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ} [الرعد: 35]، وأعظم بشارة لأهل التقوى هي محبة الله تعالى لهم؛ قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: 4، 7].

تقوى الله تعالى هي أساس كل خير للعبد في الدنيا والآخرة، عن أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه- أن رجلاً جاءه فقال: أوصني، فقال سألت رسول الله –صلى الله عليه وسلم- من قبلك، فقال: (أوصيك بتقوى الله؛ فإنه رأس كل خير)[(2)].

والآيات والأحاديث حول موضوع التقوى كثيرة جداً يصعب حصرها.

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف 23/11.

(2) أخرجه أحمد في المسند 82/3، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (555).

٦- مراقبة الله تعالى:

مراقبة الله تعالى: هي دوام علم العبد واستحضاره اطلاع الله -سبحانه وتعالى- على جميع أقواله وأعماله الظاهرة والباطنة[1].

قال الله تعالى لمّا أمر بعدم التقدم بين يديه وبين يدي رسوله: {وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الحجرات:1]، فأمر الله بتقواه بامتثال أوامره واجتناب نوهيه وبيّن أنه سميع لجميع أقوالهم وعليم بجميع أعمالهم وأحوالهم، لا يغيب عنه شيء سبحانه وتعالى، وقال الله تعالى في آيات أخرى في هذه السورة الكريمة: {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: 13]، وقال تعالى: {وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الحجرات: 16]، وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحجرات: 18].

في هذه الآيات يدعو الله سبحانه وتعالى عباده إلى استحضار مراقبته تعالى على جميع أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فهو سميع لجميع أقوالهم بصير بجميع أفعالهم وخبير بكل أحوالهم، وعليم بكل شيء لا يغيب عن علمه أي شيء في الأرض ولا في السماء.

ومراقبة الله – سبحانه وتعالى- تبعث العبد على حسن الأعمال والأخلاق وطاعة الله ورسوله وعدم مخالفتهما، فالمراقبة أحد شقي الإحسان؛ كما قال الرسول -صلى الله عليه وسلم-: (الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).[2]، قال ابن الأثير -رحمه الله-: "قيل: أراد بالإحسان: الإشارة إلى المراقبة وحسن الطاعة؛ فإن من راقب الله أحسن عمله"[3]، ولذلك قيل: "من راقب الله في خواطره: عَصَمَهُ في حركات جوارحه"[4].

٧- التوبة:

قال الله تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [الحجرات: 11].

في هذه الآية الكريمة يحث رب العزة والجلال على التوبة؛ وهي الرجوع إليه سبحانه وتعالى بالكف عن المعصية والندم على فعلها والعزم على عدم العودة إليها مستقبلاً[5].

قال النووي -رحمه الله-: "التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها شروط ثلاثة، وهي:

1- أن يقلع عن المعصية.

2- أن يندم على فعلها.

---

(1) مدارج السالكين 65/2 بتصرف.

(2) أخرجه البخاري (7501)، ومسلم (129).

(3) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر 387/1.

(4) انظر: إحياء علوم الدين 396/4.

(5) انظر: الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن ص76.

3- أن يعزم على ألا يعود إليها أبداً.

فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته، ويزاد شرط رابع إذا كان الذنب يتعلق بحق آدمي: أن يبرأ من حق صاحبه؛ فإن كان مالاً أو نحوه رده إليه، وإن كان حد قذف مكنه منه أو طلب عفوه، وإن كان غيبة استحله منها، هذا إذا لم يترتب على ذلك مفسدة أعظم"[1].

وبيّن الله تعالى أن عدم التوبة من الذنوب والمعاصي هو سلوك من ظلم نفسه، والله -عز وجل- يقبل توبة من تاب إليه وأناب فهو كما قال تعالى عن نفسه في الآية الأخرى في هذه السورة وفي غيرها من الآيات الكثيرات: تواب رحيم، قال تعالى: {وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ} [الحجرات: 12].

ويجدر التنبيه على أن الآداب الثلاثة الأخيرة: التقوى ومراقبة الله تعالى والتوبة، هي آداب مع الله تعالى من جهةٍ؛ لكونها تتعلق بتعامل واجب مع الله تعالى، وهي آداب مع النفس من جهةٍ أخرى؛ لكونها تتعلق بتزكية النفس والسعي إلى إصلاحها.

[1] النووي، رياض الصالحين ص33-34.

المبحث الثاني

الآداب الواجبة مع أفراد المجتمع

اعتنت هذه السورة الكريمة بتأديب أفراد المجتمع المسلم تجاه بعضهم البعض؛ لتهذب نفوسهم وأخلاقهم، وتحفظ مودتهم وألفتهم، وتزيد من وحدتهم وقوتهم.

وهذه الآداب هي:

١-التثبت من الأخبار:

قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} [الحجرات:6].

في هذه الآية الكريمة يأمرنا رب العزة والجلال بالتثبت من أخبار الفساق وعدم المبادرة بتصديقها لئلا نصيب قوماً بجناية ونحن نجهل حقيقة الأمر فنندم على هذا الأمر عندما يتبين لنا كذب أو خطأ هذه الأخبار.

وخصص خبر الفاسق لأنه مظنة الكذب أو الخطأ، وأما المؤمن الصالح فيؤخذ بخبره؛ لأن الأصل فيه الصدق.

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي –رحمه الله-: "هذا أيضاً من الآداب التي على أولي الألباب التأدب بها واستعمالها، وهو أنه إذا أخبرهم فاسق بخبر أن يتثبتوا في خبره، ولا يأخذوه مجرداً؛ فإن في ذلك خطراً كبيراً ووقوعاً في الإثم"(1).

وقد جاء رجل لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب –رضي الله عنه- ونقل له سوءاً عن رجل آخر، فقال له أمير المؤمنين: "نحن نسأل عما قلت، فإن كنت صادقاً مقتناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت أن نقيلك أقلناك، فقال: أقلني يا أمير المؤمنين"(2).

وجاء رجل إلى أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز –رحمه الله- فذكر له عن رجل شيئاً، فقال عمر: "إن شئت نظرنا في أمرك؛ فإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية: {إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ}، وإن كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية: {هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ} [القلم:11]، وإن شئت عفونا عنك. فقال: العفو يا أمير المؤمنين، لا أعود إليه أبداً"(3).

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٩٥١.
(2) انظر: إحياء علوم الدين ١٥٧/٣.
(3) انظر: المصدر السابق ١٥٦/٣.

٢ و ٣ – الإصلاح ونصرة المظلوم:

قال الله تعالى: {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الحجرات:9].

في هذه الآية الكريمة يأمر الله تعالى أهل الإيمان بالإصلاح بين المتخاصمين والمتقاتلين من المسلمين، فإن أبت إحدى الطائفتين الصلحَ واعتدت على الأخرى فيأمر الله تعالى بنصرة المظلوم المُعتدى عليه حتى يكف المعتدي عن ظلمه وبغيه ويرجع إلى حكم الله تعالى، فإن رجع المعتدي إلى حكم الله فيأمر الله المؤمنين بالإصلاح بين الطرفين بالعدل والإنصاف، وبيّن الله تعالى أنه يحب العادلين والمنصفين في أحكامهم.

والإصلاح وظيفة الأنبياء؛ قال الله تعالى عن شعيب –عليه السلام– قوله: {إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ} [هود:88]، ومرة تخاصم أهل قباء حتى تراموا بالحجارة، فأخبر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بذلك فقال: (اذهبوا بنا نصلح بينهم)[1].

ووعد الله تعالى المصلحين بين الناس بالأجر العظيم فقال تعالى: {لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء:114].

وبيّن النبي –صلى الله عليه وسلم– عظم منزلة الإصلاح بين الناس؛ فقال: (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى يا رسول الله، فقال: إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة)[2]، أي تحلق الدين.

ولعظم منزلة إصلاح ذات البين في الإسلام: أبيح الكذب في سبيل تحقيقه؛ قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: (ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، ويقول خيراً، وينمي خيراً)[3]، ينمي يعني ينقل.

وفي نصرة المظلوم يقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)، فقال رجل: يا رسول الله: أنصره إذا كان مظلوماً، أفرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره؟ فقال: (تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره)[4].

٤ – الأخوة:

قال الله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات:10].

---

(1) أخرجه البخاري (٢٦٩٣).

(2) أخرجه أبو داود (٤٩٢١)، والترمذي وصحّحه (٢٥٠٩).

(3) أخرجه البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم واللفظ له (٢٦٠٥).

(4) أخرجه البخاري (٦٩٥٢).

في هذه الآية القرآنية الكريمة يقرر الله تعالى الأخوة الدينية بين المؤمنين، ويأمر أهل الإيمان بالإصلاح بين المتنازعين والمختلفين، ويبيّن أن الإصلاح بينهم من مقتضيات الأخوة، وفي ختام الآية يأمر المؤمنين بتقواه بامتثال أوامره ومنها: الإصلاح بين الإخوة المتنازعين، واجتناب نواهيه؛ رجاء نيل رحمته سبحانه وتعالى.

قال أبو عبيدة: "أي أصلحوا بين كل أخوين، فهو آت على الجميع"(1).

والأخوة الدينية نعمة عظيمة امتن الله بها على هذه الأمة، فقال تعالى: {وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا} [آل عمران:103]، ولعظم هذه الأخوة ولذتها جعلها الله من نعيم أهل الجنة، قال تعالى: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِين} [الحجر:47].

وأول ما جاء النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى المدينة: آخى بين المهاجرين والأنصار؛ لأن هذه الأخوة تقوي المجتمع، وتزيد من روابطه وتماسكه، وتنشر فيه المحبة والمودة والتعاون.

٥ و ٦ و ٧ – الابتعاد عن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب:

قال الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُون} [الحجرات:11].

في هذه الآية القرآنية الكريمة ينهى ربنا تبارك وتعالى عما يجرح مشاعر المؤمن ويخدش روابط الأخوة: من السخرية، وعيب الآخرين، والتنابز بالألقاب التي يسوء الشخص سماعها.

السخرية هي الازدراء، وتكون بالقول والفعل والاشارة.

والهمز واللمز من السخرية، قيل: الهمز باللسان واللمز بالجوارح(2)، وقيل العكس: الهمز بالجوارح واللمز باللسان(3).

والتنابز بالألقاب من السخرية أيضاً، وهو دعاء المرءِ صاحبَه بما يكرهه من اسم أو صفة(4).

وذكر اللمز والتنابز بالألقاب في الآية القرآنية بعد ذكر السخرية من قبيل ذكر الخاص بعد العام اهتماماً به.

(1) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/٣٨٤.
(2) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/٣٩٠.
(3) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٧/٣٧٦.
(4) انظر: جامع البيان 371/21.

والسخرية من صفات الفاسقين المجرمين وليست من صفات المؤمنين، قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُون * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُون} [المطففين:30]، وهي ديدن أهل النفاق تجاه أهل الإيمان، قال الله تعالى عن المنافقين: {وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُون} [التوبة:58].

وبيّن النبي –صلى الله عليه وسلم– شناعة السخرية عندما قالت عائشة –رضي الله عنها–: يا رسول الله حسبك من صفية أنها كذا وكذا –يعني قصيرة–، فقال لها رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (والله لقد قلت كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته)[1].

وعندما نهى الله تعالى عن السخرية في هذه الآية الكريمة: أفرد النساء بالذكر في النهي عن السخرية؛ قال القرطبي في بيان الحكمة في ذلك: "لأن السخرية منهن أكثر"[2].

وعندما نهى الله تعالى عن اللمز قال: {وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ}، أي لا يعب بعضكم بعضاً، ولكن قال: (أنفسكم) ولم يقل: (بعضكم)؛ للتذكير والتنبيه بأن المؤمنين كنفس واحدة إذ هم إخوة، فهم كما قال –صلى الله عليه وسلم– (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[3]، وهم كما قال أيضاً: (إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً –وشبَّك بين أصابعه–)[4].

قال القرطبي: "وفي قوله: "أنفسكم" تنبيه على أن العاقل لا يعيب نفسه، فلا ينبغي أن يعيب غيره لأنه كنفسه"[5].

قال السعدي: "وسمي الأخ المؤمن نفساً لأخيه؛ لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هكذا حالهم كالجسد الواحد، ولأنه إذا همز غيره أوجب للغير أن يهمزه فيكون هو المتسبب لذلك"[6].

قال الله تعالى بعد أن نهى المؤمنين عن هذه الأخلاق السيئة: {بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ} للدلالة على أن من فعل ما نهى الله عنه من السخرية والهمز والتنابز فقد فسق وانحرف عن طريق الحق، واستحق الوصف بالفسق وساء وصفاً هذا الوصف، وهذا تبشيع لهذا السلوك المنحرف.

(1) أخرجه أبو داود (٤٨٧٧)، والترمذي (2502)، وصححه الألباني في غاية المرام (427).
(2) الجامع لأحكام القرآن ١٩/٣٨٨.
(3) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).
(4) أخرجه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).
(5) الجامع لأحكام القرآن ١٩/٣٩٠.
(6) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٩٥٣.

قال الماوردي مبيناً أن النهي عن التنابز بالألقاب المراد به الألقاب السيئة التي يكرهها الشخص لا الألقاب الحسنة: "فأما مستحب الألقاب ومستحسنها فلا يكره، وقد وصف رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عدداً من أصحابه بأوصاف صارت لهم من أجل الألقاب"[(1)].

واستثني القرطبي بعض الحالات فقال: "إنه يستثنى من هذا: من غلب عليه الاستعمال كالأعرج والأحدب، ولم يكن له سبب يجد في نفسه منه عليه، فجوزته الأئمة، واتفق على قوله أهل اللغة"[(2)].

وفي ختام هذه الآية دعا الله تعالى إلى التوبة من هذه الأخلاق السيئة عند ارتكابها، وبيّن أن من لم يتب منها فقد ظلم نفسه واستحق العقوبة من الله تعالى؛ فقال تعالى: {وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}.

٨ و ٩ و ١٠ – اجتناب سوء الظن والتجسس والغيبة:

قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ} [الحجرات:12].

في هذه الآية الكريمة يأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بآداب أخرى تديم المودة والوئام بين أفراد المجتمع المسلم، وهي اجتناب الظنون السيئة والتهم التي لا تقوم على أدلة وقرائن، وكذلك التجسس واتباع عورات المؤمنين، وغيبتهم وهي ذكرهم بما يكرهون في غيبتهم.

وتتابع هذه النواهي في الآية وترتيبها في غاية الإتقان، فإن التجسس والغيبة ثمرة سوء الظن، فإن الإنسان إذا أساء الظن قد يحمله ذلك على التجسس والغيبة، أو التجسس ثم الغيبة.

قال ابن قدامة: "واعلم أن من ثمرات سوء الظن: التجسس؛ فإن القلب لا يقنع بالظن، بل يطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس، وذلك منهي عنه؛ لأنه يوصل إلى هتك ستر المسلم، ولو لم ينكشف لك كان قلبك أسلم للمسلم"[(3)].

فالظن المنهي عنه في الآية الكريمة هو الاتهام التي لا يستند إلى دليل أو سبب[(4)]، قال عبدالله بن عباس –رضي الله عنهما–: "نهى الله المؤمن أن يظن بالمؤمن شراً"[(5)].

---

(1) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٣٩٥/١٩، وتلقيب النبي –صلى الله عليه وسلم– للصحابة كالصديق لأبي بكر والفاروق لعمر وغيرهما.

(2) المصدر السابق ٣٩٣/١٩.

(3) ابن قدامة المقدسي، مختصر منهاج القاصدين ص172.

(4) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٣٩٦/١٩.

(5) أخرجه الطبري في جامع البيان ٣٧٤/٢١.

وذكر الله تعالى أن هذه الظنون لا تغني من الحق شيئاً؛ فقال تعالى: {وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا} [يونس:36]، ونهى النبي –صلى الله عليه وسلم– عن الظن، وبيّن أنه أكذب الحديث فقال: (إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث)[1].

وقد طبق أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– هذا الأمر خير تطبيق؛ يقول ابن المسيب –رحمه الله–: "كتب إليَّ بعض إخواني أصحاب رسول الله: أن ضع أمر أخيك على أحسنه مالم يأتك ما يغلبك، ولا تظنن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً"[2].

وأما التجسس: فهو التفتيش عن بواطن الأمور[3]، وقيل: هو السؤال عن العورات[4]، وقيل: هو اتباع عيب الأخ والاطلاع على سره[5].

وقيل في الفرق بين التجسس والتحسس: أن التجسس يكون غالباً في الشر، والتحسس يكون غالباً في الخير[6].

قال عبدالله بن عباس –رضي الله عنهما– في تفسير هذه الآية: "نهى الله المؤمن أن يتبع عورات أخيه المؤمن"[7].

وقد نهى النبي –صلى الله عليه وسلم– عن اتباع عورات المؤمنين والتجسس عليهم: فقال: (إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً)[8]، وقال –صلى الله عليه وسلم– في حديث آخر: (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان قلبه: لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته)[9].

وأما الغيبة فهو ذكرك أخاك بما يكره في غَيْبته، فعن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: (أتدرون ما الغيبة؟) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (ذكرك أخاك بما يكره)، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: (إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته)[10].

---

[1] أخرجه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣).
[2] أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧٩٩٢).
[3] النهاية في غريب الحديث والأثر ٢٧٢/١.
[4] الكفوي، الكليات ٣٠٣.
[5] السيوطي، الدر المنثور ٧/ ٥٦٧.
[6] انظر: النهاية في غريب الحديث ٢٧٢/١، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٣٧٩/٧.
[7] أخرجه الطبري في جامع البيان ٣٧٤/٢١.
[8] سبق تخريجه، أخرجه البخاري ومسلم واللفظ له.
[9] اخرجه أبو داود (٤٨٨٢)، والترمذي وحسّنه (2032).
[10] أخرجه مسلم (٢٥٨٩).

قال الطبري في تفسيره للآية: "ولا يقل بعضكم في بعض بظهر الغيب ما يكره المقول فيه ذلك أن يقال له في وجهه"[1].

وقد بشّع الله تعالى صورة المغتاب في هذه الآية الكريمة وشبّهه بمن يأكل لحم أخيه وهو ميت، قال ابن عباس –رضي الله عنهما– : "إنما ضرب الله هذا المثل للغيبة؛ لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر، وكذا الغيبة حرام في الدين وقبيح في النفوس"[2].

وقال القرطبي: "مثّل الله الغيبة بأكل الميتة؛ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه"[3].

ويصوّر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– هذه الآية عملياً، ويبشع غيبة المؤمن –ولو كان ميتاً– غاية البشاعة مما يثير الاشمئزاز من هذا الخُلق البغيض؛ فلما اعترف ماعز –رضي الله عنه– بالزنى وأراد تطهير نفسه من الإثم، سمع النبي –صلى الله عليه وسلم– رجلين يقول أحدهما لصاحبه: انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رُجم رَجم الكلب! فسكت عنهما ثم سار النبي –صلى الله عليه وسلم– ساعة حتى مر بجيفة حمار شائل برجله فقال: (أين فلان وفلان؟)، فقالا: نحن ذان يا رسول الله، فقال: (انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار)، فقالا: يا نبي الله من يأكل من هذا؟! فقال –صلى الله عليه وسلم–: (فما نلتما من عرض أخيكما آنفاً أشد من أكلٍ منه، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها)[4].

ولذلك قال عبدالله بن مسعود –رضي الله عنه–: "ما التقم أحد لقمة أشر من اغتياب المؤمن"[5].

وبيّن النبي –صلى الله عليه وسلم– خطورة غيبة المسلم وأنها سبب لعذاب القبر، فعن أبي بكرة –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– مرَّ بقبرين فقال: (إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير؛ أما أحدهما فيعذب في البول، وأما الآخر فيعذب في الغيبة)[6].

والغيبة كذلك سبب لعذاب الآخرة، فقد روى أنس بن مالك –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: (لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم)[7].

ومن حق المسلم على أخيه المسلم أن يرد عن عرضه بالغيبة، ومن فعل ذلك فهو موعود بالأجر العظيم من الله تعالى، قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: (من رد عن عرض أخيه؛ ردَّ الله عن وجهه النار يوم القيامة)[1].

---

(1) جامع البيان ٣٧٦/٢١.
(2) انظر الجامع لأحكام القرآن ٤٠٣/١٩.
(3) المصدر السابق.
(4) أخرجه أبو داود (٤٤٣٠)، وصححه ابن كثير في تفسيره للآية 383/7.
(5) أخرجه الطبري في جامع البيان ٣٧٨/٢١.
(6) أخرجه ابن ماجه (٣٤٩)، وصححه ابن حجر في فتح الباري ٤٨٥/١.
(7) أخرجه أبو داود (٤٨٨٠)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (533).

١١- المساواة بين الناس:

قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات:13].

في هذه الآية القرآنية الكريمة يقرر الله تعالى المساواة بين الناس في أصل الخلقة، ويذكّر الناس أنهم كلهم من ذكر واحد وهو آدم -عليه السلام-، ومن أنثى واحدة وهي حواء -عليها السلام-، فلا يفخر أحد على أحد بنسب أو حسب أو لون أو مال أو جاه، ويبيّن الله سبحانه وتعالى أنه جعلنا شعوباً وقبائل من أجل التعارف والوئام لا التفاخر والتدابر والخصام، ويؤكد الله تعالى على أن المقياس الحقيقي للتفاضل والكرامة عنده تعالى هو مقياس التقوى، أي فعل الأوامر واجتناب النواهي، فيقول: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[الحجرات:13].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: "فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية؛ وهي طاعة الله ومتابعة رسوله -صلى الله عليه وسلم-"(2).

ويقرر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هذا المعنى؛ فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أي الناس أكرم؟ فقال: (أكرمهم عند الله أتقاهم)(3).

وعن أبي نضرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- خطب الناس في أيام التشريق في حجة الوداع فقال: (يا أيها الناس: ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى)(4).

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)(5)، فالعبرة ومقياس التفاضل هو العمل الصالح فقط دون اعتبارات أخرى.

ولذلك حرّم الإسلام التفاخر بالأحساب وبيّن أنها من أمر الجاهلية، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، وفاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب)(1)، "عُبِّيَّة الجاهلية" أي نخوتها وكِبرها.

(1) أخرجه الترمذي وحسّنه (١٩٣١).
(2) تفسير القرآن العظيم ٧/٣٨٥.
(3) أخرجه البخاري (٤٦٨٩).
(4) أخرجه أحمد (٢٣٤٨٩)، وصححه الألباني السلسلة الصحيحة (2700).
(5) أخرجه مسلم (2564).

المبحث الثالث

أثر تطبيق الآداب الإسلامية في المجتمع

إن سورة الحجرات من أواخر ما نزل من القرآن الكريم، فهي السورة الثامنة بعد المائة في ترتيب النزول، نزلت في أواخر البعثة النبوية لتقرير وتأكيد قواعد الأخلاق والآداب في المجتمع المسلم؛ ليزداد ترابطاً وتكاتفاً وقوة بروابط المحبة والألفة والإخاء والإصلاح والتعاون والتثبت وعفة اللسان والأفعال؛ فالآداب والأخلاق هي وسيط الانسجام والمحبة بين أفراد المجتمع.

ويؤكد هذا الأمر قول الله تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت: 34].

قال ابن كثير: "إذا أحسنت إلى من أساء إليك؛ قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك، حتى يصير كأنه ولي لك حميم، أي: قريب إليك، من الشفقة عليك والإحسان إليك"(2).

وإذا ساءت الأخلاق جاءت نزغات الشيطان ثم يحصل النزاع والشقاق، قال الله تعالى: {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا} [الإسراء: 53].

وإذا حصل النزاع والشقاق جاء الفشل والضعف والتشتت؛ قال الله تعالى: {وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: 46]

قال المراغي: "أي ولا يكن منكم تنازع واختلاف، فإن ذلك مدعاة للفشل والخيبة وذهاب القوة، فيتغلب عليكم العدو"(3).

وقال ابن عاشور: "وإنما كان التنازع مفضياً إلى الفشل؛ لأنه يثير التغاضب، ويزيل التعاون بين القوم، ويحدث فيهم أن يتربص بعضهم ببعض الدوائر، فيحدث في نفوسهم الاشتغال باتقاء بعضهم بعضاً، وتوقع عدم إلقاء النصير عند مآزق القتال، فيصرف الأمة عن التوجه إلى شغل واحد فيما فيه نفع جميعهم، ويصرف الجيش عن الإقدام على أعدائهم، فيتمكن منهم العدو"(4).

قال عبدالرحمن الميداني مبيناً أهمية الأخلاق الكريمة في ترابط المجتمع وخطورة فقدانها: "إن أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية لا يستطيع أفراده أن يعيشوا متفاهمين متعاونين سعداء ما لم تربط بينهم روابط متينة من الأخلاق الكريمة، فمكارم الأخلاق ضرورة

(1) أخرجه أبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٦) واللفظ له، وقال حسن صحيح.
(2) تفسير القرآن العظيم 181/7.
(3) المراغي، تفسير المراغي 10/10.
(4) التحرير والتنوير 31/10.

اجتماعية لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات، ومتى فقدت الأخلاق التي هي الوسيط التي لابد منه لانسجام الإنسان مع أخيه الإنسان؛ تفكك أفراد المجتمع وتصارعوا وتناهبوا مصالحهم، ثم أدّى بهم ذلك إلى الانهيار ثم إلى الدمار"[(1)].

- أثر امتثال الآداب مع الله ورسوله الواردة في هذه السورة الكريمة:

إذا كان المجتمع ممتثلاً للآداب الشرعية تجاه الله تعالى ورسوله –صلى الله –عليه وسلم– [عدم التقدم بين يدي الله ورسوله – عدم رفع الصوت فوق صوت النبي وعدم ندائه باسمه مجرداً وعدم إزعاجه – تقوى الله تعالى – مراقبة الله تعالى – التوبة]؛ كان مثالياً مطبقاً لتعاليم الدين كله، متخلقاً بخلق القرآن، مقتدياً برسول الأنام –صلى الله عليه وسلم– في أخلاقه وأقواله وأفعاله التي قال الله تعالى عنها: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: 4]، فلا يكون في المجتمع إلا كل خلق حسن حميد.

فهذه الآداب تحمل المجتمع على تطبيق أوامر الله تعالى ورسوله –صلى الله عليه وسلم– في الاعتقاد والعبادة والأخلاق والسلوك.

فالأدب مع الله تعالى ورسوله –صلى الله عليه وسلم– هو أساس كل أدب جميل وخلق قويم؛ فإذا تأدب المؤمن مع الله تعالى ورسوله –صلى الله عليه وسلم–؛ التزم بتطبيق كل خلق وأدب أمر به الله تعالى ورسوله –صلى الله عليه وسلم– مع غيره من أفراد مجتمعه، وبذلك تسود روح المحبة والألفة والتعاون بين أفراد المجتمع، وتزيد قوة المجتمع ومنعته وتماسكه.

وما الآداب الواجبة مع أفراد المجتمع الواردة في هذه السورة الكريمة إلا ثمرة من ثمرات الأدب مع الله تعالى ورسوله –صلى الله عليه وسلم–.

- أثر امتثال الآداب مع أفراد المجتمع الواردة في هذه السورة الكريمة:

- التثبت في الأخبار:

هذا الأدب الإسلامي الرفيع يحفظ المجتمع من القيل والقال والإشاعات، واتهام الناس بالباطل، ونفور النفوس والتباغض بين أفراده، وكذلك يحميه من الظلم وسوء الظن والتسرع في القرارات.

- الإصلاح ونصرة المظلوم:

هذان الخلقان الكريمان يحميان المجتمع المسلم من الخصام والشقاق والتفكك، ويجمعان الكلمة، ويزيدان المحبة، ويقويان المجتمع ويزيدان لحمته، ويثبتان معاني الخير والتعاون على البر والتقوى في المجتمع، ويزيلان عوامل الفساد والشر، ويحقان الحق ويرفعان الظلم، وهما سببان للنصر والتمكين والنجاة للأمة.

[(1)] الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها 1/ 33-34 بتصرف يسير.

- الأخوة:

من لوازم هذا الخلق الكريم –الأخوة الإيمانية– ما جاء في حديث النبي –صلى الله عليه وسلم–: (لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع أحدكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ها هنا –ويشير إلى صدره ثلاث مرات–، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كلُّ المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه)[1]، فالأخوّة الحقيقية تنفي الحسد والغش والبغض والتدابر وانتهاك الحقوق والظلم والخذلان والاحتقار والبهتان.

ومن لوازمها أيضاً عدم الهجر والقطيعة بين الإخوة فوق ثلاث ليال، قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: (لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام) [2].

من لوازمها أن يحب المسلم لأخيه ما يحبه لنفسه: قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) [3].

ومن لوازم الأخوة الصادقة: النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال الله تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[التوبة:71]، ولعظم منزلة النصيحة في الإسلام؛ كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يأخذ البيعة على النصيحة للمسلمين ممن أراد الدخول في الإسلام، قال جرير بن عبدالله –رضي الله عنه–: (بايعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم)[4].

ومن لوازمها: رد السلام، وعيادة المريض، والصلاة على جنازته، وإجابة دعوته، وتشميته إذا عطس؛ قال الرسول –صلى الله عليه وسلم–: (حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس) [5].

ومن لوازمها أيضاً ما كل ما جاء في هذه السورة من آداب مع الغير: من تثبت في الأخبار وإصلاح ونصرة للمظلوم ونهي عن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب السيئة وظن السوء والتجسس والغيبة.

وغيرها من لوازم الأخوّة التي تزيد الألفة والمحبة، وتساهم في الترابط والتماسك المجتمعي، وتحقق العدل والتكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع، وتتيح التقدم والابتكار والازدهار لهذا المجتمع المنسجم.

(1) أخرجه البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم واللفظ له (٢٥٦٤).

(2) أخرجه البخاري (٦٠٧٧)، ومسلم (٢٥٦٠).

(3) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

(4) أخرجه البخاري (٥٧) ومسلم (٥٦).

(5) أخرجه البخاري (١٢٤٠) ومسلم (٢١٦٢).

- اجتناب السخرية واللمز والتنابز بالألقاب وسوء الظن والتجسس والغيبة:

هذه الأخلاق السيئة تجرح مشاعر المؤمن، وتخدش روابط الأخوة، وتفسد المودة، وتنتهك حقوق الإنسان، وتثير الشحناء والبغضاء، وتؤدي إلى التنازع والخلاف، وتحتم الفشل والضعف، وكانت موجودة في المجتمع؛ ولذلك نهى عنها القرآن الكريم، وهذّب أخلاق المؤمن إكراماً لمشاعر المؤمنين، وحفاظاً على روابط الأخوة وائتلاف القلوب بينهم، وتكريماً للإنسان، وتقوية للمجتمع وزيادة لتماسكه وتعاون أفراده.

- المساواة بين الناس:

إن المساواة بين الناس تحقق التوازن الاجتماعي بين أفراد المجتمع، فلا يستشعر المسلم ألم الفوارق بسبب المال أو الجاه أو العرق أو الحسب أو القرابة من المسؤول ونحوها.

وبالمساواة يتحقق الاستقرار والطمأنينة في المجتمع لشعور كل فرد فيه أنه ليس أقل من الآخر، وأن جميع أفراد المجتمع متساوون في الحقوق والواجبات، وأن فرص الحصول على حقه في التعليم والوظائف العامة متساوية مع الجميع، وأن الجميع متساوي في حق الكرامة الإنسانية؛ فلا يؤذى أحد بسبب لونه أو عِرقه أو جنسه أو مذهبه أو عقيدته.

وبالمساواة يتحقق الاطمئنان لعدالة الأحكام، فلا يعاقب أحد ولا يُعفى من العقوبة أحد بسب لون أو عرق أو مذهب أو دين أو قرابة أو شرف أو مال أو جاه، وقد جسّد النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا الأمر بأفعاله وأقواله، ومن ذلك قوله -صلى الله عليه وسلم- لما شفعوا في المرأة المخزومية التي سرقت: (والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)[1].

والمساواة في المجتمع تقضي على الطائفية؛ لأن الجميع سواسية أمام القانون واللوائح والقرارات.

---

[1] أخرجه البخاري (6788)، ومسلم (1688).

الخاتمة

في ختام هذا البحث أحمد الله –سبحانه وتعالى– على إتمامه، ولا أدّعي الكمال فيه، بل هو عمل بشر لابد وأن يعتريه القصور، وأستغفر الله من كل خلل وخطأ.

وأبرز ما توصلت إليه من نتائج:

1. اهتم القرآن الكريم بجانب الأخلاق والآداب اهتماماً بالغاً إذ هو مقصود رئيس من مقاصده العظيمة.
2. اعتنى القرآن الكريم بتأديب المسلمين تجاه الله تعالى ورسوله –صلى الله عليه وسلم–، وخلاصة الأدب مع الله ورسوله هو الامتثال والطاعة والتوقير وعدم التقدم بين يدي الله ورسوله.
3. اعتنى القرآن الكريم بتأديب المسلمين تجاه بعضهم البعض مما يحفظ محبتهم وألفتهم ويقوي لحمتهم ووحدتهم ويزيد ترابطهم.
4. هناك ارتباط وثيق بين الإيمان وبين الأدب مع الله ورسوله والأدب مع أفراد المجتمع؛ حيث صُدِّرت أغلب هذه الآداب بالنداء الرباني بوصف الإيمان: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}.
5. الأدب الواجب تجاه الله ورسوله هو أساس بقية الآداب مع أفراد المجتمع، فإذا طبقوا الامتثال والتوقير لله ورسوله؛ امتثلوا لأوامرهما بالتأدب مع أفراد المجتمع.
6. ضرورة التأدب بالآداب القرآنية لتتماسك جبهة المجتمع الإسلامي الداخلية وتسود فيه روح الألفة والتعاون والترابط؛ ومن ثَمَّ يستطيع الصمود في وجه الصراعات والتحديات التي تواجهه.
7. جاءت كثير من الآداب في هذه السورة الكريمة بصيغة النهي؛ مما يدل على وجودها في المجتمع، وحرص الإسلام على تهذيب أخلاق المجتمع لأهميته البالغة.

ومن أبرز ما أوصي به الباحثين: البحث في المقصد الأخلاقي في القرآن الكريم عموماً، والمقاصد الأخلاقية من العقيدة الإسلامية، والمقاصد الأخلاقية من التشريعات الإسلامية.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد

وعلى آله وصحبه أجمعين

المصادر والمراجع

1. ابن الأثير، المبارك، (1979م)، ***النهاية في غريب الحديث والأثر***، (د. ط)، بيروت، المكتبة العلمية.
2. الأصفهاني، الراغب، (1423هـ-2002م)، ***مفردات ألفاظ القرآن***، تحقيق: صفوان داودي، ط3، دمشق، دار القلم.
3. الألباني، محمد ناصر الدين، (1405هـ)، ***غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام***، ط3، بيروت، المكتب الإسلامي.
4. الألباني، محمد ناصر الدين، (1418هـ-1997م)، ***صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري***، ط4، الجبيل، دار الصديق.
5. الألباني، محمد ناصر الدين، (1995م)، ***سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها***، ط1، الرياض، مكتبة المعارف.
6. الأندلسي، عبدالحق بن غالب بن عطية، (2007م)، ***المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز***، تحقيق: الرحالة الفاروق وآخرون، ط2، الدوحة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر .
7. البخاري، محمد بن إسماعيل، (1422هـ)، ***صحيح البخاري***، ط1، بيروت، دار طوق النجاة، - جدة، دار المنهاج.
8. البخاري، محمد بن إسماعيل، (1989م)، ***الأدب المفرد***، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، ط3، بيروت، دار البشائر الإسلامية.
9. البغوي، الحسين بن مسعود، (2006م)، ***معالم التنزيل***، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرون، الإصدار الثاني ط2، الرياض، دار طيبة.
10. البيضاوي، عبدالله بن عمر ، (1968م)، ***أنوار التنزيل وأسرار التأويل***، ط2، القاهرة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي.
11. البيهقي، أبو بكر ، (2003)، ***شعب الإيمان***، ط1، الرياض، مكتبة الرشد.
12. الترمذي، محمد بن عيسى، (1995م)، ***الجامع الصحيح***، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون، (د. ط)، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
13. جماعة من علماء التفسير ، (1436هـ)، ***المختصر في تفسير القرآن الكريم***، ط3، الرياض، مركز تفسير للدراسات القرآنية.
14. الحاكم، أبو عبدالله، (1990م)، ***المستدرك على الصحيحين***، تحقيق: مصطفى عبدالقادر ، ط2، بيروت، دار الكتب العلمية.

15. الخراز، خالد بن جمعة، (1430هـ-2009م)، ***موسوعة الأخلاق***، ط1، الكويت، مكتبة أهل الأثر.

16. الرازي، فخر الدين، (1401هـ-1981م)، ***مفاتيح الغيب***، ط1، بيروت، دار الفكر.

17. ابن زكريا، أحمد بن فارس، (1420هـ-1999م)، ***مقاييس اللغة***، تحقيق: عبدالسلام هارون، (د. ط)، بيروت، دار الجيل.

18. الزمخشري، محمود بن عمر، (د. ت)، ***الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل***، (د. ط)، بيروت، دار المعرفة.

19. السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث، (1997م)، ***السنن***، تحقيق: عزت الدعاس وعادل السيد، ط1، بيروت، دار ابن حزم.

20. السعدي، عبدالرحمن بن ناصر، (1422هـ)، ***تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان***، ط1، الدمام، دار ابن الجوزي.

21. السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن، (2013)، ***الدر المنثور في التفسير بالمأثور***، تحقيق: د. عبدالله التركي، (د. ط)، الرياض، دار عالم الكتب.

22. الشيباني، محمد بن أحمد بن حنبل، (2008م)، ***المسند***، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، ط2، بيروت، مؤسسة الرسالة.

23. الطبري، محمد بن جرير، (2003م)، ***جامع البيان عن تأويل آي القرآن***، تحقيق: د.عبدالله التركي، ط1، بيروت، دار عالم الكتب.

24. ابن عاشور، محمد الطاهر، (د.ت)، ***التحرير والتنوير***، (د. ط)، تونس، دار سحنون.

25. عرجون، محمد الصادق إبراهيم، (1989م)، ***القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين***، ط2، دمشق، دار القلم.

26. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، (د. ت)، ***فتح الباري في شرح صحيح البخاري***، (د. ط)، بيروت، دار المعرفة.

27. العيني، بدر الدين محمود، (د. ت)، ***عمدة القاري شرح صحيح البخاري***، (د. ط)، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

28. الغزالي، أبو حامد، (د. ت)، ***إحياء علوم الدين***، (د. ط)، بيروت، دار المعرفة.

29. الفيروزأبادي، محمد بن يعقوب، (1433هـ-2012م)، ***القاموس المحيط***، ط3، بيروت، مؤسسة الرسالة.

30. القرطبي، محمد بن أحمد، (2006م)، ***الجامع لأحكام القرآن***، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة.

31. القزويني، ابن ماجه، (د. ت)، ***السنن***، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (د. ط)، بيروت، دار الفكر.

32. القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية، (د. ت)، ***موسوعة الأخلاق الإسلامية***، (د. ط)، الظهران، مؤسسة الدرر السنية.

33. قطب، سيد، (1982م)، ***في ظلال القرآن***، ط10، بيروت، دار الشروق.

34. ابن القيم، محمد، (1423هـ-2002م)، ***مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين***، تحقيق: محمد حامد الفقي، (د. ط)، بيروت، دار الفكر.

35. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، (2002م)، ***تفسير القرآن العظيم***، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، الإصدار الثاني ط1، الرياض، دار طيبة.

36. الكفوي، أبو البقاء، (1998م)، ***الكليات***، (د. ط)، بيروت، مؤسسة الرسالة.

37. مجموعة من المختصين، (1418هـ-1998م)، ***موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم-***، ط1، جدة، دار الوسيلة.

38. المراغي، أحمد مصطفى، (1985م)، ***تفسير المراغي***، ط2، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

39. المقدسي، أحمد ابن قدامة، (1398هـ- 1978م)، ***مختصر منهاج القاصدين***، (د. ط)، دمشق، دار البيان.

40. المناوي، محمد، (1356هـ)، ***فيض القدير شرح الجامع الصغير***، ط1، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى.

41. ابن منظور، محمد بن مكرم، (د. ت)، ***لسان العرب***، (د. ط)، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

42. الميداني، عبدالرحمن حسن حبنكة، (1420هـ-1999م)، ***الأخلاق الإسلامية وأسسها***، ط5، دمشق، دار القلم.

43. النووي، يحيى بن شرف، (1419هـ-1998م)، ***رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين***، ط3، بيروت، مؤسسة الرسالة.

44. النيسابوري، مسلم بن الحجاج القشيري، (د. ت)، ***صحيح مسلم***، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (د. ط)، بيروت، دار إحياء التراث العربي.